مساء الخير أو السلام عليكم، أو يبادرون بالتحية فأرد السلام. وأحيانا أبكّر في الخروج فلا ألتقي أحدا منهم. يهبط بي المصعد إلى الطابق الأرضي، أتجاوز المناور، ألمح أولادا أو بنات من الساكنين فوق السطوح، ينزلون السلالم في طريقهم إلى مدارسهم، فأفكر في البنات. ما زال البواب يستخدم كلمة «سكوندو» للدلالة على السلالم الجانبية القائمة في المنور، ربما لكي لا يستخدم عبارة «سلم الخدم» المستخدمة سابقا، أو لأنه احتفظ برواسب لغة عرفها أيام كان شابا مساعدا لبواب عمارة معظم سكانها أجانب وأفندية لا يختلفون عن الأجانب سوى في لون البشرة والشعر المموج أو الأجعد، وأحيانا، وليس دائما، في الأسماء.

لم يأتني محمود من «السكوندو» في زيارته الأولى. كان في الثامنة من عمره حين دق بابي. فتحت فوجدت ولدا صغير الحجم، نحيلا، بشرته سمراء وله شعر مفلفل قصير. قال وهو يتطلع مباشرة في وجهي، يعرّفني بنفسه: «أنا من أولاد الجيران، قضيت ساعتين أحاول حل مسألة الحساب، لم أستطع، هل يمكن أن تساعدني على فهمها يا خال؟» استغربت كلمة «يا خال»، استعذبتها فضحكت، أخذ، قال: «لماذا تضحك؟!» بالغت في الترحيب به وأنا أدعوه للدخول. شرحت له مسألة الحساب. قلت وأنا أصحبه إلى الباب، «بإمكانك أن تسألني أحيانا لو احتجت السؤال.» ضحك. قال: «لا يا خال، أمي دائما تقول: لو كان حبيبك عسل...» كانت ضحكته تضيء وجهه بشكل ملفت، فينتبه الناظر لشدة سواد عينيه ونظرة تجمع بين البراءة والانتباه، ويهجس بمعادلة غريبة يلتقي فيها طفل وديع وحيي، بصبي فيه جرأة واعتداد بنفسه، وربما أيضا عناد. سألته: في أي طابق تسكن؟ لم يجب مباشرة. ثم كأنه حسم أمره وبصوت أعلى قليلا من المتوقع يجعل مخارج الألفاظ أوضح، قال: «أسكن فوق السطوح!» صمت لثانية، أضاف: «المرة القادمة حين آتي لزيارتك، سأدق باب المطبخ، لا داعي للنزول سبعة أدوار من السلم الخلفي ثم الصعود مرة أخرى من السلم الآخر، أقرب، أليس كذلك؟!».